قَيْسُ بنُ سَعد بن عُبَادَة

أدْهَى العَرَب، لَوْلَا الإسْلَام

كان الأنصار يُعاملونه على حَداثةِ سنّه كزعيم..

وكانوا يقولون: «لو استطعنا أن نَشترى لقيس لحيةً بأموالنا لفعلنا»..

ذلك أنه كان أجْرَدَ، ولم يكن ينقصه من صفات الزعامة فى عُرْف قومه سوى اللحية التى كان الرجال يتوجون بها وجوههم.

فمن هذا الفتى الذى ودَّ قومُه لو يتنازلون عن أموالهم لِقاء لحيَة تكسُو وجهه، وتكمل الشكل الخارجى لعظمته الحقيقية، وزعامته المتفوقة..؟؟

إنه قيس بن سعد بن عُبادة.

مِن أجود بيوت العرب وأعرقها... البيت الذى قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام:

«إن الجودَ شيمَةُ أهل هذا البيت»..

وإنه الداهية الذى يتفجَّر حيلة، ومَهارة، وذكاء، والذى قال عن نفسه وهو صادق:

«لولا الإسلام، لمكرتُ مكرًا لا تُطيقُه العرب»..!!

ذلك أنه كان حادّ الذكاء، واسع الحيلة، مُتوقّد الذهن.

ولقد كان مكانه يوم صفين مع على ضد معاوية.. وكان يجلس مع نفسه فيرسم الخدعة التى يمكن أن تودى بمعاوية وبمن معه فى يوم أو بعض يوم، بيد أنه يتفحَّص خُدعته هذه التى تفتّق عنها ذكاؤه فيجدها من المكْر السَّيئ الخطر، ثم يذكر قول الله سبحانه:

﴿ولا يَحيقُ المكْرُ السَّيئُ إلاَّ بأهله﴾...

فيهُبُّ من فوره مستنكرًا، مستغفرًا، ولسان حاله يقول:

«واللّهِ لَئن قدَّر لمعاوية أن يغلبنا، فلن يغلبنا بذكائه، بل بوَرَعِنا وتَقْوانا»..!!

إن هذا الأنصارىَّ الخزْرَجِىَّ من بيتِ زَعامَة عظيم، وَرِث

المكارمَ كابرًا عن كابر.. فهو ابن سعد بن عبادة، زعيم الخزرج الذى سيكون لنا معه فيما بعدُ لِقاء..

وحين أسلم «سعد» أخذ بيد ابنه «قيس» وقدمه إلى الرسول قائلًا:

«هذا خادِمُكَ يا رَسُولَ الله»..

ورأى الرسول فى «قيس» كلَّ سمات التفوُّق وأمائر الصلاح..

فأدْناهُ منه وقرّبه إليه وظل قيس صاحب هذه المكانة دائمًا..

يقول «أنَسٌ» صاحب رسول الله:

«كان قيسُ بن سعد من النبى، بمكان صاحب الشرطة من الأمير».

وحين كان قيس، قبل الإسلام يُعامل الناس بذكائه كانوا لا يحتملون منه وَمْضةَ ذِهن، ولم يكن فى المدينة وما حولها إلا من يحسب لدهائه ألف حساب.. فلما أسلم، علَّمه الإسلام أن يُعامل الناس بإخلاصه، لا بدهائه، ولقد كان ابنًا بارًّا للإسلام، ومِنْ ثَمَّ نحَّى دهاءه جانبًا، ولم يعد ينسج به مُناوراته القاضية.. وصار كلما واجه موقعًا صعبًا، يأخذه الحنين إلى دهائه المقيد، فيقول عبارته المأثورة:

«لولا الإسلام، لمَكَرْت مَكْرًا لا تُطيقُه العَرَب»... !!!

* * *

ولم يكن بين خِصاله ما يَفوقُ ذكاءه سِوى جودِه.. ولم يكن الجودُ خُلُقًا طارئًا على قيس، فهو من بيتٍ عريق فى الجود والسخاء، وكان لأسرة قيس - على عادة أسخياء العرب وأثريائهم يومئذ - مُنادٍ يقف فوق مُرتَفَع لهم وينادى الضِّيفان إلى طعامهم نهارًا.. أو يُوقِد النار لتَهدى الغريب السارى ليلا.. وكان الناس أيامئذ يقولون: «من أحبَّ الشَّحْمَ، واللحم، فلْيأت أطُمَ دُلَيم بن حارثة»...

و «دليم بن حارثة» هو الجد الثانى لقيس...

ففى هذا البيت العريق أُرْضِعَ قيسٌ الجود والسماح..

تحدث يومًا أبو بكر وعمر حول جود قيس وسخائه وقالا:

«لو تركنا هذا الفتى لسخائه، لأهلك مال أبيه»..

وعلم «سعد بن عُبادة» بمقالتهما هذه عن ابنه قيس، فصاح قائلًا: «من يُعْذرُنى من أبى قحافة، وابن الخطاب.. يُبَخِّلان علىَّ ابنى»... !!!

وأقْرض أحد إخوانه المُعْسِرين يومًا قرضًا كبيرًا..

وفى الموعد المضروب للوفاء ذهب الرجل يردُّ إلى قيس قَرْضه فأبى أن يقبله وقال:

«إنا لا نعود فى شىء أعطيناه»... !!

* * *

وللفطرة الإنسانية نهج لا يتخلَّف، وسُنّة لا تتبدَّل.. فحيث يوجد الجود توجد الشجاعة..

أجل.. إن الجود الحقيقى والشجاعة الحقيقية تَوْءَمان، لا يتخلَّف أحدهما عن الآخر أبدًا.. وإذا وجدْتَ جودًا ولم تجد شجاعة، فاعلم أن هذا الذى تراه ليس جودًا.. إنما هو مظهر فارغ وكاذب من مظاهر الزَّهْو والادِّعاء.. وإذا وَجدتَ شجاعة لا يصاحبها الجود، فاعلم كذلك أنها ليست شجاعة، إنما هى نزوة من نزوات التهوُّر والطيش..

ولما كان «قيس بن سعد» يُمسك أعِنّةَ الجود بيمينه فقد كان يُمسك بذات اليمين أعِنَّة الشجاعة والإقدام..

لكأنه المَعْنِيُّ بقول الشاعر:

إذا ما رايةٌ رفعت لِمَجْدٍ تلَقَّاها عَرابَةُ باليمين

تألَّقت شجاعته فى جميع المشاهد التى صاحب فيها رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو حيّ..

وواصَلتْ تألّقاتِها، فى المشاهد التى خاضها بعد أن ذهب الرسول إلى الرفيق الأعلى..

والشجاعة التى تعتمد على الصدق بدل الدهاء.. وتتوسَّل بالوضوح والمواجهة، لا بالمناوَرَة والـمُراوغة، تُحمّل صاحبها من المصاعب والمشاقّ ما يَؤُوده ويُضنيه..

ومنذ أَلْقَى قيس وراء ظهره، قدرته الخارقة على الدهاء والمناورة، وحمل هذا الطراز من الشجاعة المسْفِرة الواضحة، وهو قرير العين بما تُسببه له من مَتاعب وما تَجلِبهُ من تَبِعات...

إن الشجاعة الحقَّة تنقذف من اقتناع صاحبها وحده..

هذا الاقتناع الذى لا تُكوِّنه شهوة أو نزوة. إنما يُكوِّنه الصدق مع النفس، والإخلاص للحق..

وهكذا حين نَشِب الخلاف بين علىّ ومعاوية، نرى قَيْسًا يخلو بنفسه، ويبحث عن الحق من خلال اقتناعه، حتى إذا رآه مع «علىّ» ينهض إلى جواره شامخًا، قويًّا، مُسْتَبسِلا..

وفى معارك صِفّين، والجَمَل، والنهروان، كان قيس أحد أبطالها المسْتَبْسِلين..

كان يحمل لواء الأنصار وهو يصيح:

هذا اللواء الذى كنَّا نَحُف به مع النبى، وجبريلٌ لنا مددُ
ما ضَرَّ من كانت الأنصارُ عَيْبَتَه ألّا يكون له من غيرهم أحدُ

ولقد ولّاه الإمام «علىّ» حكم مصر..

وكانت عين معاوية على مصر دائمًا.. كان ينظر إليها كأثمن دُرَّة فى تاجه المنتظر..

من أجل ذلك لم يكد يرى قيسًا يتولى إمارتها حتى جُنّ جنونه وخشى أن يَحُول قيس بينه وبين مصر إلى الأبد، حتى لو انتصر هو على «الإمام علىّ» انتصارًا حاسمًا..

وهكذا راح بكل وسائله الماكرة، وحِيله التى لا تُحجِم عن أمر، يَدُسُّ عند على ضد قيس، حتى استدعاه الإمام من مصر..

وهنا وجد قيس فرصة سعيدة ليستعمل ذكاءه استعمالا مَشروعًا، فلقد أدرك بفطنته أن معاوية لعب ضدّه هذه اللعبة بعد أن فشل فى استمالته إلى جانبه، لكى يوغر صدره ضد الإمام علىّ، ولكى يضائل من ولائه له.. وإذن، فخير رد على دهاء معاوية، هو المزيد من الولاء لعلى، وللحق الذى يُمثله على، والذى هو فى نفس الوقت مَناط الاقتناع الرشيد والأكيد لقيس

ابن سعد بن عبادة..

وهكذا لم يُحسَّ لحظة أن عليًّا عزله عن مصر.. فما الولاية، وما الإمارة، وما المناصب كلها عند قيس إلا أدوات يخدم بها عقيدته ودينه.. ولئن كانت إمارته على مصر وسيلة لخدمة الحق، فإن موقفه بجوار على فوق أرض المعركة وسيلة أخرى لا تقل أهمية ولا رَوْعة..

* * *

وتبلغ شجاعة قيس ذروة صدقها ونُهاها، بعد استشهاد على وبيعة الحسن..

لقد اقتنع قيس بأن الحسن رضى الله عنه، هو الوارث الشرعى للإمامة فبايعه ووقف إلى جانبه غير مُلْقٍ إلى الأخطار بالا..

وحين يضطرهم معاوية لامتشاق السيوف، ينهض قيس فيقود خمسة آلاف من الذين حلقوا رءوسهم حدادًا على الإمام على..

ويُؤثِرُ الحسن أن يُضمِّد جراح المسلمين التى طال شُحُوبها، ويضع حدًّا للقتال المُفنى المُبيد، فيفاوض معاوية ثم يبايعه..

هنا يدير «قيس» خواطره على المسألة من جديد، فيرى أنه

مهما يكن فى موقف الحسن من الصواب، فإن لجنـود قيس فى ذِمَّته حقَّ الشورى فى اختيار المصير، وهكذا يجمعهم ويخطب فيهم قائلا:

«إن شئتم جالَدْتُ بكم حتى يموتَ الأعجلُ منا، وإن شئتم أخذتُ لكم أمانًا»..

واختار جنوده الأمر الثانى، فأخذ لهم الأمان من مُعاوية الذى ملأ الحبورُ نفسَه حين رأى مقاديره تُريحه من أقوى خصومه شكيمة وأخطرهم عاقبة..

وفى المدينة المنورة - عام تسع وخمسين - مات الداهية الذى رَوَّض الإسلامُ دهاءه..

مات الرجل الذى كان يقول:

لولا أنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«المكرُ، والخديعة فى النار، لكنتُ من أمكر هذه الأمة»..

مات فى سلام، تاركًا للحياة عَبيرَ رجل صادق، واضح، جَوادٍ، شُجاع..

أجَل.. مات.. تاركًا وراءه عَبيرَ رجل أمين على كل ما للإسلام عنده من ذِمَّة، وعهد، وميثاق..